ملخص البحث
"تعامل المحتسبين مع المخالفين لهم في ضوء القرآن الكريم – دراسة موضوعية"

اشتمل هذا البحث على تمهيد في التعريف بالمحتسبين وبمخالفيهم، وعلى ثلاثة مباحث. **فالمبحث الأول** في بيان حاجة المحتسبين إلى تدبر القرآن الكريم. **والمبحث الثاني** في مقومات المحتسبين في ضوء القرآن الكريم، وهي ستة مقومات مهمة: البينة الواضحة، والبصيرة النيرة، والتقوى، وتهيئة النفس بإصلاحها وتربيتها، والعدل والإنصاف، والصبر الجميل. وأما **المبحث الثالث** فكان في آداب تعامل المحتسبين مع المخالفين في ضوء القرآن الكريم، وهي: التثبت والتبين، والرد بالتي هي أحسن، وعدم التنازل والركون إلى الأعداء والمخالفين للحق، وعدم المجادلة والدفاع عن المبطلين، والجهاد والغلظة للمخالفين من أهل النفاق، وفضح المخالفين من المنافقين وكشف خططهم.

وأما **خاتمة** البحث فقد اشتملت على ثلاث نتائج وأربع توصيات.

ABSTRACT

Muhtasibs' Treatment of Their Opponents Based on The Qur'nic Teachings: An Objective Study

The study contained an introduction defining the Muhtasibs and their opponents; as well as other thee parts. Part one focused on the need of Muhtasibs to contemplate on the meanings of The Gracious Qura'n. The second part dealt with six requirements of the Muhtasibs as revealed within The Qura'nic teachings: clear evidence, enlightened vision, piety, self discipline, justice and patience. The third part focuses on the etiquettes of the Muhtasibs in dealing with their opponents based of the Qura'nic teachings. They included: having clear evidence, posing polite argument, avoiding concessions at the expanse of the truth, avoiding justifying transgressors' actions, showing firmness in dealing with hypocrites and exposing the transgressors among the hypocrites and their plots. The study concluded with three findings and four recommendations.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين؛ أما بعد:

فلا شك أن المؤمن بالقرآن العظيم، والمتدبر لآياته الكريمة يعلم أنه يهدي للتي هي أقوم في جميع الأمور؛ إذ هو كلام الخالق الحكيم: ﴿ **أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾ [الملك:14]؛ (فمن اهتدى بما يدعو إليه القرآن كان أكمل الناس وأقومهم وأهداهم في جميع أموره.)[1].

ومن هنا تأتي أهمية تدبر القرآن الكريم والتفكر في آياته لاستخراج هداياته، واستنباط توجيهاته؛ وذلك لتكون هذه الهدايات والتوجيهات منطلقاً للمسلم في جميع شؤونه، ومرجعاً يرجع إليه في جميع أموره، وخاصة عند التنازع والاختلاف.

ومن أكثر الناس حاجة لمعرفة هدايات القرآن وتوجيهاته: المحتسبون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، لأنهم يقومون بشعيرة ظاهرة من شعائر الدين، ويمثلون الأمة المسلمة في مواجهة أهل الفسوق والشهوات، ويجاهدون أهل الأهواء والشبهات.

وإذا كان أهل الحسبة حريصين على القيام بهذه الشعيرة امتثالاً لأوامر الله في كتابه، ورغبة في حسن ثوابه؛ فإن عليهم أن يحرصوا على تطبيق المنهج الذي أصّله هذا القرآن وقرّره، وأن يرجعوا إليه عند التنازع والاختلاف، وأن يوقنوا أنهم واجدون ما يبيّن لهم الهدى، وينير لهم السبيل، ويمدّهم بالزاد الذي يحتاجون إليه للقيام بوظيفتهم الشاقة الشريفة.

وقد اعتنى أئمتنا السابقون، وعلماؤنا الربانيون بإبراز هذه الهدايات، وجمع هذه التوجيهات؛ فصنفوا المصنفات في هذا الباب، واستنبطوا الأحكام في هذا المجال، وكتبوا البحوث في هذا الشأن.

ولكن أكثر هذه المصنفات والبحوث ركّزت على الجانب التأصيلي لأحكام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من حيث أدلةُ وجوبه، وتأصيل قواعده، وجمعُ آداب القائمين به.

وأما الجانب الآخر لهذا الموضوع، وهو التعامل مع المخالفين لأهل الحسبة؛ فلا يزال بحاجة للكتابة والبيان، خاصة مع كثرة المخالفين وتجدد وسائلهم وتنوع

---

(1) تفسير السعدي ص 454.

غاياتهم.

ولهذا عقدت العزم على كتابة هذا البحث، وجعلت عنوانه:

"تعامل المحتسبين مع المخالفين لهم في ضوء القرآن الكريم – دراسة موضوعية"

هدف البحث:

يهدف هذا البحث إلى ذكر معالم مهمة في التعامل مع المخالفين لأهل الحسبة في ضوء القرآن الكريم، من خلال جمع الآيات القرآنية في هذا الموضوع، وبيان ما دلت عليه من الأحكام والفوائد، وأرشدت إليه من التوجيهات والهدايات التي تعصم من تمسك بها من الانحراف، وترشد من اهتدى بها إلى سبيل العدل والإنصاف.

وقد جعلت هذا البحث في تمهيد، وثلاثة مباحث وخاتمة:

- **أما التمهيد:** فعرفت فيه تعريفاً مختصراً بالمحتسبين، وبالمخالفين لهم.
- **وأما المبحث الأول:** فذكرت فيه بعض الأمور المهمة التي تبيّن حاجة المحتسبين إلى تدبر القرآن الكريم، وأهمية الاهتداء به في كل أمورهم، وخاصة فيما يتعلق بالتعامل مع المخالفين.
- **وأما المبحث الثاني**: فذكرت فيه أهم مقومات المحتسب التي يحتاج إليها للقيام بمهمة الاحتساب من خلال القرآن الكريم.
- **وفي المبحث الثالث** ذكرت فيه أهم الصفات والآداب التي يجب على المحتسبين الاتصاف والتأدب بها في التعامل مع المخالفين لهم، وذلك من خلال النصوص القرآنية الكريمة.
- **ثم الخاتمة**، وفيها أهم النتائج والتوصيات.
- ثم **قائمة بأهم مصادر البحث ومراجعه**.

وقد حرصت في هذا البحث على التركيز على بعض الجوانب التي أرى أنها مهمة ولم تعط حقها في الكتب والبحوث الكثيرة عن الحسبة والمحتسبين، وما أعطي حقه وله صلة بهذا البحث فإني أكتفي فيه بالقدر الذي تحصل به الكفاية والإشارة.

كما أني حرصت على أن أعتمد اعتماداً مباشراً على القرآن الكريم، حيث اجتهدت في ذكر ما يهم المحتسبين من واجبات وآداب من خلال ما جاء في الآيات القرآنية.

وبعد؛ فقد اجتهدت في كتابة هذا البحث المختصر، الذي أسأل الله أن يجعله نافعًا لكاتبه وقارئه، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

كتبه الدكتور
محمد بن عبدالله بن جابر القحطاني
الأستاذ المساعد بكلية الشريعة وأصول الدين - جامعة الملك خالد

U

التعريف بالمحتسبين وبمخالفيهم

أولاً: التعريف بالمحتسبين[1]:

تعريف المحتسبين مبني على تعريف الحسبة، وهي: **(عمل يقوم به المسلم لتغيير منكر ظاهر، أو أمر بمعروف داثر، من خلال ولاية رسمية أو جهود تطوعية، وعلى المكلف بها ما ليس على المتطوع)[2].**

وعلى هذا؛ فأهل الحسبة ينقسمون إلى قسمين:

الأول: من يجب عليهم القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجوباً عينياً، وهم المكلفون بهذه المهمة من قبل ولي أمر المسلمين.

الثاني: من يجب عليهم ذلك وجوباً كفائيًا، وهم المتطوعون.

ولا شك أن بين المحتسب المكلف، والمحتسب المتطوع فروقاً في القيام بمهمة الاحتساب، وقد نص عليها العلماء الذين صنفوا في فقه الاحتساب[3]، ولكنهما يشتركان في القيام بهذه الوظيفة الشريفة.

وأما المحتسب فيعرف بأنه: **(مسلم يسعى لتغيير المنكر وإقامة المعروف، وفقاً لمنهج الشريعة، امتثالاً لأمر الله وطلباً لثوابه، متولياً ومتطوعاً)[4].**

وبناء عليه؛ يكون المقصود بالمحتسبين في هذا البحث القائمين بالحسبة، سواء كان ذلك عن طريق التكليف من ولي الأمر، أو على سبيل القيام بها تطوعاً.

---

(1) سأقتصر في التعاريف على المطلوب مباشرة، دون التوسع بذكر التعاريف اللغوية، طلبا للاختصار، ولأن المعنى اللغوي سهل قريب المأخذ.

(2) الحسبة في الماضي والحاضر للدكتور علي بن حسن القرني 1/63-64.

(3) انظر هذه الفروق في كتاب الأحكام السلطانية للماوردي ص299-300، وكتاب الحسبة في الماضي والحاضر 1/89-93.

(4) الحسبة في الماضي والحاضر 1/88.

ويدخل في هذا التعريف القائمون بالحسبة الخاصة، وهي القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مجال معيّن، كدائرة حكومية، أو مؤسسة تجارية، أو بيت خاص، وما شابه ذلك. فلا شك أن كل من تولى أمرًا خاصاً فهو راع فيه، ومسؤول عن رعيته.

والمحتسبون في القرآن الكريم هم الأنبياء (عليهم السلام)، وأتباعهم من الدعاة إلى الله على بصيرة، والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر.

ثانياً: التعريف بالمخالفين للمحتسبين:

لا شك أن معرفةَ المخالفين لأهل الحسبة، والعلمَ بأقسامهم ورتبهم، والقدرةَ على التمييز بينهم من المهمات التي يحتاج إليها المحتسبون؛ حتى يكون التعامل معهم قائماً على العدل والحكمة، ومحققاً للغرض المقصود الذي يوافق أحكام الشريعة.

والناظر في الواقع يظهر له أن المخالفين للمحتسبين يمكن تقسيمهم من جهات عدة:

الجهة الأولى: المخالفون لهم من حيث الدين، وهم الكفار ومن في حكمهم من المنافقين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، ومن المدعين للإسلام وهم في الحقيقة كفار، كمن تلبّس ببدعة مكفرة.

الجهة الثانية: المخالفون لهم من حيث التمسك بالدين، وهم المسلمون الذين انحرفوا عن الحق، سواء كان هذا الانحراف متعلقاً بالاعتقاد، أو بالسلوك والتطبيق. ومن هؤلاء: أهل الضلال من المبتدعة، وأهل الفسق من أصحاب الكبائر والظالمين والمجاهرين بالفسق والمفسدين في الأرض، وأهل النفاق العملي.

الجهة الثالثة: المخالفون لهم بسبب الجهل، وهم الذين يخالفون المحتسبين بسبب جهلهم بأهمية ما يقومون به، أو بسبب جهلهم بنظام الحسبة وصلاحياته.

الجهة الرابعة: المخالفون لهم في بعض الجزئيات التي تتعلق بالفهم والتطبيق للاحتساب.

وقد ورد ذكر بعض أصناف المخالفين لأهل الحسبة في القرآن الكريم، ومنهم:

1- الكفار المحاربون للأنبياء والمحتسبين، وهم المذكورون في قول الله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ**﴾ [آل عمران: 21، 22].

والموقف من هذا الصنف واضح، وهو أنهم يدعون إلى الدخول في الدين الحق، فيمتنعون فيعاملون حسب ما شرع الله (Y) في أحكام الجهاد بالسيف

والسنان.

2- المنافقون الذين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، كما أخبر الله (Y) عنهم في قوله: ﴿ **الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ [التوبة: 67]. وهذا الصنف من أشد الناس مخالفة، ومن أخطرهم على المسلمين عموماً، والمحتسبين خصوصاً؛ لأنهم يظهرون الحرص على الإصلاح، ويدعون العلم والفهم، ويثيرون الشبه المضلة. ولذلك اشتمل القرآن الكريم على الكثير من الآيات في التحذير منهم، والبيان المفصل لصفاتهم وأحوالهم وأقوالهم وأفعالهم، بل أنزل الله تعالى سورةً سميت باسمهم – وهي سورة "المنافقون" -، وسورةً لفضحهم – وهي سورة "براءة" التي تسمى الفاضحة-.

والموقف من هذا الصنف والتعامل معه يكون بما شرع الله (Y) في كتابه وفي سنة رسوله (ε)، وهو جهادهم بالحجة والبيان، وكشف خططهم وأساليبهم، والتحذير منهم، والإعراض عنهم مع الوعظ الحسن، والقول البليغ. وتفصيل ذلك هو صلب هذا البحث.

3- الجاهلون لوجوب الحسبة، أو لأهميتها، أو لبعض أحكامها، ويمكن التمثيل لهذا الصنف بالأمة التي ذكرها الله جلّ وعلا بقوله – في بيان خبر القرية التي كانت حاضرة البحر -: ﴿ **وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾[الأعراف: 164]. وظاهر الآية – مع تنوع لأقوال المفسرين في بيان معناها - يدل على أن هذه الأمة كانت تجهل شيئاً مهماً يتعلق بمهمة المحتسبين، وقد يكون هذا الشيء الذي تجهله وجوبَ الاستمرار في الإنكار سواء نفع أم لم ينفع، وقد يكون ما غاب عنها هو الثمرة التي يجنيها المحتسب من قيامه بهذا الواجب وهو السلامة والنجاة من العذاب واللوم.

المبحث الأول
حاجة المحتسبين لتدبر القرآن المبين

لا ريب أن الله (Y) أنزل كتابه العظيم _ القرآن الكريم _ لهداية الناس أجمعين إلى الصراط المستقيم، فاهتدى به المتقون المتدبرون، وأعرض عنه المكذبون الغافلون.

ولأهمية التدبر في الاهتداء بالقرآن الكريم جعله الله (Y) المقصد الأول من إنزاله في قوله تعالى: ﴿ **كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ** ﴾ [ص: 29]. جاء في تفسير السعدي (~) لهذه الآية: {**لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ**} أي: هذه الحكمة من إنزاله، ليتدبر الناس آياته، فيستخرجوا علمها ويتأملوا أسرارها وحكمها، فإنه بالتدبر فيه والتأمل لمعانيه، وإعادة الفكر فيها مرة بعد مرة، تدرك بركته وخيره، **وهذا يدل على الحث على تدبر القرآن، وأنه من أفضل الأعمال، وأن القراءة المشتملة على التدبر أفضل من سرعة التلاوة التي لا يحصل بها هذا المقصود.)**[1]

كما أنكر الله (Y) على الذين لا يتدبرون القرآن في أكثر من موضع، فقال جلّ وعلا: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ** ﴾[النساء: 82]، [محمد: 24]، وهذا يدل على وجوب التدبر في القرآن – كما قال القرطبي -.[2]

ولا ريب كذلك أنّ من أحوج الناس لتدبر القرآن العظيم وتفهم معانيه أهلَ الدعوة إلى الله، والمحتسبين القائمين بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ وذلك لأمور:

الأمر الأول: تحقيق الاتباع لإمام الدعاة (ρ)؛ فإنه لا يكون من أتباعه على الحقيقة إلا من دعا إلى الله على بصيرة، وقد قال الله (Y): ﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي** ﴾ [يوسف: 108].[3]

والبصيرة تُستمد من القرآن العظيم؛ إذ هو كما أخبر الله (Y): ﴿**هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾ [الجاثية: 20]، ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ [الأعراف: 203].

---

(1) تفسير السعدي 712.
(2) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (290/5).
(3) انظر رسالة ابن القيم لأحد إخوانه ص23 – طبعة دار عالم الفوائد.

الأمر الثاني: امتثال أمر الله تعالى بالجهاد بالقرآن في قوله (Y): ﴿ **فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا**﴾ [الفرقان: 52]؛ (فقوام الدين بالعلم والجهاد، ولهذا كان الجهاد نوعين: جهاد باليد والسنان، وهذا المشارك فيه كثير، والثاني: الجهاد بالحجة والبيان، وهذا جهاد الخاصة من أتباع الرسل، وهو جهاد الأئمة، وهو أفضل الجهادين لعظم منفعته وشدة مؤنته وكثرة أعدائه، قال تعالى - في سورة الفرقان وهي مكية -: ﴿**وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا . فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا**﴾ [الفرقان: 51-52]، فهذا جهاد لهم بالقرآن، وهو أكبر الجهادين، وهو جهاد المنافقين أيضاً؛.. ومعلوم أن جهاد المنافقين بالحجة والقرآن.)[1]

الأمر الثالث: استبانة سبيل المجرمين، كما قال تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ**﴾ [الأنعام: 55]، (وسَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ: طَرِيقهُمْ وَسِيرَتهُمْ فِي الظُّلْمِ وَالْحَسَدِ وَالْكِبْرِ وَاحْتِقَارِ النَّاسِ وَالتَّصَلُّبِ فِي الْكُفْرِ)[2]، (وقرئ بنصب السبيل[3] على أن الفعل متعد وتاؤه للخطاب، أي: ولتستوضح أنت يا محمد سبيلَ المجرمين، فتعامِلَهم بما يليق بهم)[4].

والله تعالى قد بيّن فى كتابه سبيل المؤمنين مفصلة، وسبيل المجرمين مفصلة، وأعمال هؤلاء وأعمال هؤلاء، فالعالمون بالله وكتابه ودينه عرفوا سبيل المؤمنين معرفة تفصيلية، وسبيل المجرمين معرفة تفصيلية؛ فاستبانت لهم السبيلان؛ فهؤلاء أعلم الخلق وأنفعهم للناس وأنصحهم لهم، وهم الأدلاء الهداة[5].

الأمر الرابع: حاجتهم إلى الثبات والتثبيت؛ فالقرآن يثبت الفؤاد كما قال الله (Y): ﴿**وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾[هود: 120]، وهو عصمة لمن اتبعه من الضلال والكفر كما دلّ على ذلك قول الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ . وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** ﴾ [آل عمران:100 - 101].

---

(1) مفتاح دار السعادة لابن القيم (271/1) باختصار يسير.
(2) التحرير والتنوير: (260/7).
(3) وهي قراءة نافع كما في السبعة لابن مجاهد ص258.
(4) تفسير أبي السعود: (373/2).
(5) انظر الفوائد لابن القيم ص255-256 بتحقيق عامر بن علي ياسين – طبعة دار ابن خزيمة.

الأمر الخامس: أن القرآن العظيم يبيّن لهم الموقف الصحيح من كل شبهة تثار، أو موقف يتخذه المخالفون لهم؛ فيدفعون به كيد أعدائهم، ويردون به على دعاوي خصومهم، كما قال الله (Y): ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا * وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا** ﴾[الفرقان: 32-33]، ومعنى الآية الأخيرة كما ذكر المفسرون: {ولا يأتونكَ} يعني المشركين {بِمَثَل} يضربونه لك في مخاصمتك وإبطال أمرك {**إلا جئناك بالحقّ**} أي: بالذي هو الحقّ، لتَرُدَّ به كيدهم {**وأحسنَ تفسيراً**} من مَثَلهم؛ والتفسير: البيان والكشف [1].

وبالج ملة فالقرآن العظيم (كَمَا وَفَّى بِتَقْرِيرِ الدِّينِ وَتَكْمِيلِهِ وَشَرْحِهِ وَتَفْصِيلِهِ، كَذَلِكَ هُوَ وَافٍ بِالذَّبِّ عَنْهُ وَبِرَدِّ كُلِّ شُبْهَةٍ تَرِدُ عَلَيْهِ, وَبِقَمْعِ كُلِّ مُلْحِدٍ وَمُعَانِدٍ وَمُشَاقٍّ وَمُحَادٍّ, وَبِدَمْغِ كُلِّ بَاطِلٍ وَإِزْهَاقِهِ ﴿**وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا**﴾ [الْفُرْقَانِ: 33] ﴿ **بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ** ﴾[الْأَنْبِيَاءِ: 18])[2].

المبحث الثاني
مقومات المحتسبين في ضوء القرآن الكريم

من خلال استعراض الآيات القرآنية الكريمة يتبين أن القرآن العظيم قد بيّن للقائمين بوظيفة الاحتساب بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما يجب عليهم، وما يشرع لهم من واجبات وآداب، وما ينبغي أن يكونوا عليه من صبر وثبات.

كما أنه قد جاء في القرآن من قصص السابقين، ومواقف الدعاة المحتسبين ما ينير الطريق لمن أراد الاقتداء بهم، ويثبت المصلحين السائرين على طريقهم، ويثير

(1) انظر الكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي (132/7)، وزاد المسير في علم التفسير (474/4)، وتفسير البغوي (83/6)، والوجيز للواحدي (605/1).

(2) معارج القبول بشرح سلم الوصول للشيخ حافظ الحكمي (1110/3).

عزائم الراغبين في اللحاق بهم. قال الله تعالى: ﴿ **فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ . ... وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ . وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ . وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ . وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ . وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ . وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ [هود: 116 - 123].

وبالنظر والتأمل في آيات القرآن الكريم يمكن القول بأن الصفات والواجبات والآداب التي يجب على أهل الحسبة أن يتصفوا بها تنقسم إلى قسمين:

الأول: مقومات تتعلق بأهل الحسبة أنفسهم، وهي الصفات التي يجب أن يتحلوا بها حتى يكونوا أهلاً للقيام بوظيفتهم على الوجه المرضي الصحيح.

الثاني: واجبات وآداب يحتاجها أهل الحسبة عند مواجهة المخالفين، حتى يتمكنوا من التصدي لهم، والثبات في مواجهتم، والتعامل مع مواقفهم بالطريقة الصحيحة المشروعة.

وسيكون هذا المبحث للقسم الأول، حيث أذكر فيه المقومات الضرورية لأهل الحسبة.

وقد ظهر لي من خلال تأمل القرآن الكريم، والنظر في آياته أن أهم مقومات المحتسبين تتمثل في الآتي:

المقوم الأول: البينة الواضحة:

من القواعد الشرعية المقررة أن العلم قبل القول والعمل، ومن المعلوم بالضرورة أنه لا يمكن إتقان أي عمل إلا بعد تصوره والعلم بما يحتاج إليه. ومن هنا تأتي أهمية العلم الواضح الذي يجعل صاحبه على بينة من ربه جل وعلا.

وأحوج الناس إلى البينة الدعاةُ إلى الله تعالى، والقائمون بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال جلّ وعلا: ﴿ **قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ** ﴾[الأنعام: 57].

والبيّنة التي لا بد أن يكون المحتسب عليها – اقتداء بالنبي (ε)، وبالأنبياء عليه السلام قبله – تحصل بأمور ثلاثة مُبيَّنةٍ في القرآن العظيم:

الأمر الأول: أن يكون على بينة من الحق الذي أنزله الله تعالى، ودعا إليه رسول الله (ε)، فيكون ممتثلاً لقول الله (Y): ﴿**الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ**﴾ [البقرة: 147]، ولقوله سبحانه: ﴿**الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ**﴾ [آل عمران: 60].

وهذه البينة قاعدة مهمة أصيلة لكل محتسب، لأنه إذا حققها وتمكن منها فلن يتأثر بكل ما يحاك ضده من مؤامرات، ولن يشك في دينه وصحة معتقده بسبب ما يثار حوله من الشبهات.

قال الشيخ السعدي (~)**:** عند تفسيره للآية السابقة في سورة آل عمران: (وفي هذه الآية .. دليل على قاعدة شريفة، وهو أن ما قامت الأدلة على أنه حق، وجزم به العبد من مسائل العقائد وغيرها، فإنه يجب أن يجزم بأن كل ما عارضه فهو باطل، وكل شبهة تورد عليه فهي فاسدة، سواء قدر العبد على حلها أم لا، فلا يوجب له عجزه عن حلها القدح فيما علمه، لأن ما خالف الحق فهو باطل، قال تعالى: {**فماذا بعد الحق إلا الضلال**}. وبهذه القاعدة الشرعية تنحل عن الإنسان إشكالات كثيرة يوردها المتكلمون ويرتبها المنطقيون، إن حلها الإنسان فهو تبرع منه، وإلا فوظيفته أن يبين الحق بأدلته ويدعو إليه)[1].

وهذه البينة هي التي كان يعلنها سادة المحتسبين، وأئمة الدعاة عليهم السلام عندما يخالفهم أقوامهم، ويكذبونهم ويستهزئون بهم، قال تعالى عن نوح (υ) لما كذبه قومه: ﴿**قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ**﴾[هود: 28]، وقال سبحانه عن صالح (υ): ﴿**قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ**﴾ [هود: 63]، وقال عن شعيب (υ) بعدما نصح قومه ونهاهم عن المنكرات التي تلبسوا بها، فسخروا منه ومن نهيه لهم-: ﴿**قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىَ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾[هود: 88].

ولوضوح هذه البينة، ولعظيم أثرها صارت دليلاً على صدق الرسل عليهم السلام وأتباعهم، وصارت معلماً يعرف من خلاله أن من عاداهم وآذاهم فقد ضل سواء السبيل؛ لأنه يخالف من جاء بالبينات من ربه. قال الله تعالى عن مؤمن آل

---

(1) تفسير السعدي ص 133.

فرعون: ﴿ **وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ**﴾ [غافر: 28].

وهذه البينة لها أثر كبير جداً في ثبات المحتسب، حيث لا يمكن أن يتأثر بكيد المجرمين، ولا بتهديدات المخالفين، وهذا الأثر يظهر بجلاء في موقف هود (υ) من قومه عندما تجرأوا عليه، وزعموا أنه لم يأتهم ببينة من ربه؛ وعندها غضب هود (υ)، وأعلن استخفافه بهم، وتحداهم بكل جرأة وقوة، وما ذلك إلا ليثبت لهم أنه على بينة من ربه، وأنه قد جاءهم بهذه البينة؛ قال الله تعالى: ﴿ **قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ .. إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ .. مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ .. إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .. فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ**﴾ [هود:53 - 57].

ومن أعجب ما ورد في القرآن العظيم من المواقف التي تدل على أهمية البينات في الثبات: موقف سحرة فرعون عندما آمنوا برب العالمين، وخروا له ساجدين، فما كان من الطاغية فرعون إلا أن هددهم وتوعدهم بالقتل والتصليب، ومع ذلك ثبتوا ثباتاً عجيباً مع حداثة عهدهم بالإيمان.

وقد سجل لهم القرآن العظيم هذا الثبات القوي، وذكر عنهم ما يدل على أن السبب الأكبر في ثباتهم ذلك هو رؤيتهم للبينات الواضحة، قال الله تعالى: ﴿**فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى . قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى . قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا**﴾ [طه: 70 - 72].

<u>الأمر الثاني:</u> أن يكون على بينة من عدوه، وذلك بالجزم ببطلان ما يعتقده ذلك العدو مما يخالف الحق، والتيقن من ضلال سبيله وانحراف منهجه؛ وإلا فإنه لن يثبت أمام كيده، ولن يتمكن من النجاة من مكره. قال الله تعالى: ﴿ **وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ. قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ .. قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ**

يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾ [الأنعام: 55 - 57].

فهذه الآيات الكريمة توضح المنهج الذي يجب أن يكون عليه كل داعية ومحتسب، وتبين الموقف الصحيح الذي ينبغي أن يتعاملوا به مع مخالفيهم من المجرمين. وهي -كما هو ظاهر من سياقها وما اشتملت عليه- تؤكد على قضية الاستبانة والبينة؛ فالاستبانة لسبيل المجرمين، والبينة من الله (Y) هما المنطلق للتعامل مع المخالفين، لأنهما طريق اليقين الذي به مع الصبر تنال الإمامة في الدين.

وإذا كانت استبانة سبيل المجرمين ضرورية لاستبانة سبيل المؤمنين، **فإنها أيضًا مهمة في تنشيط أهل الحق للقيام بواجبهم؛ فإن القيام بالحق لا ينشأ فقط من شعور صاحب الحق أنه على الحق، ولكن كذلك من شعوره بأن الذي يواجهه ويحاربه إنما هو على الباطل، وأنه عدو له كما قال الله تعالى في الآية الأخرى: ﴿ وكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾**[الفرقان: 31].

<u>الأمر الثالث:</u> أن يكون على بينة بسنن الله تعالى التي لا تتبدل ولا تتغير. ومن أهم السنن التي لا يسع الداعية المحتسب إلا أن يكون على بينة منها:

1- سنة التدافع بين الحق والباطل، كما قال الله تعالى- بعد أن انتصر المسلمون بقيادة طالوت، وقتل داود جالوت (الكافر)-: ﴿ **فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾[البقرة: 251]، وقال تعالى بعد إذنه سبحانه للمؤمنين بالقتال: ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾[الحج:39، 40] [(1)].

2- سنة الاختلاف وأن الناس لا يزالون مختلفين، كما قال ربنا جل وعلا: ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**﴾ [هود: 118، 119].

(**1**) ينظر كتاب سنة التدافع وحقيقة العلاقة بين الحق والباطل – دراسة قرآنية موضوعية- لخالد بن موسى الزهراني.

3- سنة دفاع الله عن المؤمنين، كما أخبر الله تعالى عن ذلك خبراً مؤكداً في قوله:﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ**﴾[الحج: 38]. وكم لمعرفة هذه السنة العظيمة من أثر جميل على المحتسبين، خاصة عندما يشتد أذى المخالفين، ويعظم كيدهم. ومن تولى الله تعالى الدفاع عنه، فلا خوف عليه.

4- سنة النصر للمؤمنين، والعاقبة للمتقين، كما قال الله (Y): ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الروم: 47]، وقال سبحانه: ﴿ **تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [القصص: 83].

5- سنن الابتلاء والتمحيص والتمكين، كما قال الله تعالى: ﴿ **أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ**﴾[العنكبوت: 2، 3]، وقال جل وعلا: ﴿ **إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ. وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ**﴾ [آل عمران: 140- 141]، وقال سبحانه: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ [النور: 55].

(**ومحصّلة هذه السنن:** أن بعضها يمسك برقاب بعض كحلقات السلسلة يشد بعضها بعضاً، فلا تمكين بلا تمحيص، ولا تمحيص بلا ابتلاء؛ إذ متى تحققت أوائلها تحققت أواخراها، إنها سنن ساطعة وحقائق ثابتة)[1].

كل هذه السنن الربانية جاء ذكرها وتقريرها والتذكير بها في القرآن الكريم، واشتد توكيدها في قصص الأنبياء والمرسلين لتكون واضحة بيّنةً لكل داعية مصلح محتسب إلى أن يأتي أمر الله المبين.

وليس المقام هنا مقام بسط وتوضيح، وإنما المراد هنا بيان أن معرفة هذه

(**1**) مقال بعنوان "العلم بالسنن الربانية" للدكتور محمد أمحزون، منشور في مجلة البيان العدد 115 ص 50.

السنن معرفة تامة، وتذكرها والعمل بمقتضاها هو سبيل الثبات والتوفيق لأولياء الله المحتسبين.

المقوم الثاني: البصيرة النيرة:

قبل أن أفصل القول في بيان هذه الصفة أرى أن أجيب عن سؤال قد يرد هنا، وهو: ما الفرق بين البينة والبصيرة؟

والجواب: أن البينة تتعلق بالاعتقاد الذي محله القلب؛ فالبينة أمر علمي اعتقادي، وأما البصيرة فتتعلق بالسبيل الذي يسير عليه الداعية، فالبينة هي الأصل، ووجودها لازم للداعية ولغيره ولو لم يدعُ ويمارس الاحتساب، وأما البصيرة فتكون عند العمل والتطبيق والقيام بالدعوة والاحتساب.

قال الله تعالى: ﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [يوسف: 108].

والبصيرة: هي المعرفة التي يتميز بها بين الحق والباطل[1].

ورحم الله شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب، فقد جعل البصيرة من الفرائض في كتابه المبارك "كتاب التوحيد" وذلك في ذكره للمسائل المأخوذة من الأدلة التي أوردها في باب: الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله.[2]

قال الشيخ محمد العثيمين (~)**:** (ووجه كون البصيرة من الفرائض; أنه لا بد للداعية من العلم بما يدعو إليه، والدعوة فريضة; فيكون العلم بذلك فريضة.)[3]

والبصيرة التي يحتاجها المحتسب عندما يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر تكون في ثلاثة أمور:[4]

الأمر الأول: بصيرة فيما يأمر به، وفيما ينهى عنه؛ فلا بد أن يعرف المعروف حتى يأمر به، والمنكر حتى ينهى عنه، وذلك من خلال علمه وبصيرته بالشرع.

الأمر الثاني: بصيرة بحال المحتسب عليه، والمخالف؛ وذلك حتى يتعامل معهم بما يناسبهم.

الأمر الثالث: بصيرة بالطريقة المناسبة للاحتساب، وبالأسلوب المناسب في التعامل مع المخالف.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة يعتبر قاعدة أصيلة مهمة في الدعوة إلى الله

---

(1) تفسير البغوي - (284/4)

(2) انظر كتاب التوحيد للإمام محمد بن عبدالوهاب 139/1 مع القول المفيد على كتاب التوحيد.

(3) القول المفيد على كتاب التوحيد لمحمد العثيمين (139/1)

(4) هذه الأمور الثلاثة مقتبسة من كلام للإمام محمد العثيمين (~) في رسالة له بعنوان: زاد الداعية إلى الله.

تعالى بجميع أنواعها، والتي منها الاحتساب بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ومما يدخل في البصيرة دخولاً أولياً معرفة القواعد التي لا بد منها، والضوابط التي لا بد من مراعاتها عند القيام بالاحتساب [1].

المقوم الثالث: التقوى:

جاء الأمر بالتقوى في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، كما أنه اشتمل على ذكر كثير من فضائل التقوى وثمارها في الدنيا والآخرة.

والذي يهمنا في هذا البحث هو حاجة المحتسب إليها، وثمرة اتصافه بها من خلال الآيات القرآنية، وذلك يظهر من وجوه:

الوجه الأول: تحقيق التقوى سبب لتعظيم شعائر الله (Y)، وعون على القيام بها والمحافظة عليها. وقد دل على هذا المعنى قول الله تعالى: ﴿ **ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ**﴾ [الحج: 32]، أي: أن تعظيم شعائر الله تعالى بالمحافظة عليها وتكميلها وإتقانها ناشئ من تقوى القلوب. ولا شك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من شعائر الله؛ لأن المراد بشعائر الله: أعلام دينه الظاهرة. وإذا عظّم المحتسب هذه الشعيرة فإنه سيؤديها على أكمل الوجوه، ولن يثنيه عنها ما يقابله من أذى وتعب وكيد من الأعداء والمخالفين.

الوجه الثاني: أن من اتقى الله تعالى بفعل أوامره واجتناب نواهيه جعل له فرقاناً يفرق به بين الحق والباطل، والخير والشر، والضار والنافع، والعدو والصديق، كما دل على ذلك قوله سبحانه: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾ [الأنفال: 29]. وقد وُفق الطاهر ابن عاشور عندما فسّر الفرقان في الآية، حيث قال: (وقد أشعر قوله: "لكم" أن الفرقان شيء نافع لهم؛ فالظاهر أن المراد منه كل ما فيه مخرج لهم ونجاة من التباس الأحوال وارتباك الأمور وانبهام المقاصد، فيؤول إلى استقامة أحوال الحياة، حتى يكونوا مطمئني البال منشرحي الخاطر وذلك يستدعي أن يكونوا: منصورين، غالبين، بصراء بالأمور، كَمَلةَ الأخلاق، سائرين في طريق الحق والرشد، وذلك هو ملاك استقامة الأمم، فاختيار الفرقان هنا، لأنه اللفظ الذي لا يؤدي غيره مؤداه في هذا الغرض، وذلك من تمام الفصاحة)[2].

الوجه الثالث: أن التقوى سبب لنجاة صاحبها من الكروب والمضايق،

---

(1) انظر كتاب قواعد مهمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في ضوء الكتاب والسنة للدكتور حمود بن أحمد الرحيلي.

(2) التحرير والتنوير - (326/9).

ولتيسير الصعاب والشدائد، كما قال ربنا (Y): ﴿ **وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ..**﴾[الطلاق: 2، 3]، وقال: ﴿ **وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا**﴾ [الطلاق: 4].

الوجه الرابع: أن تحقيق التقوى حماية من كيد الأعداء؛ فلا يضر المتقين شيئاً، كما قال العليم الخبير جلّ وعلا: ﴿ **إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا**﴾ [آل عمران: 120].

الوجه الخامس: أن التقوى سبب لنيل الكرامة بمعية الله تعالى، وهذه المعية معية خاصة، تقتضي الحفظ والتوفيق والرعاية والحماية والتسديد، قال تعالى: ﴿ **وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ . وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ . إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ**﴾[النحل: 126 - 128]، (ومن كان الله معه كان غالباً، وصفقته رابحة، وحالته صالحة، وأمره عال، وضده في أسوأ الأحوال؛ فلا تستعجلوا قلقاً كما استعجل الكفار استهزاء.)[1]، (ومن كان الله معه فلا عليه ممن يكيدون وممن يمكرون.)[2].

المقوم الرابع: تهيئة النفس بتربيتها وإصلاحها:

لا شك أن مهمة الاحتساب مهمة شاقة وثقيلة، ولها تبعات كثيرة، وتحتاج إلى تضحية وبذل، ومثل هذه المهمة يحتاج إلى إعداد وتهيئة للنفس.

ومن الأمور المهمة التي لها صلة بهذا الشأن:

1. تهيئة النفس بالعبادة، وهذا ما جاء التنبيه عليه في سورة المزمل، حيث قال الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ . قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا . نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا . أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا . إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا . إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا . إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا . وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا . رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا. وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا . وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا**﴾ [المزمل: 1 - 11] وهذه الوصايا توضح بجلاء أهمية العبادة في تهيئة النفس للقيام بالحمل الثقيل، ولمواجهة ما يقول المكذبون.
2. تهيئة النفس بتوقع البلاء، وأن ذلك من لوازم الاحتساب، وفي هذا يقول الله

(1) نظم الدرر للبقاعي - تحقيق: عبدالرزاق غالب (326/4).
(2) فى ظلال القرآن (2203/4).

تعالى: ﴿ **كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ . أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ . فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ . وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الذاريات: 52 - 55]، ويقول جل وعلا: ﴿ **مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ**﴾ [فصلت: 43]. وإذا كان الأمر كذلك فلن يتعجب المحتسب من حصول الأذى، ولن يفاجأ بما يقال فيه، ولن يتأثر بما يتهم به؛ لأنه قد وطن نفسه لذلك، وهيأها للتعامل مع هذه الأنواع من المواجهات التي يثيرها المخالفون. وجميل هنا ما سطره الشيخ بكر أبوزيد (~) حيث ذكر كلاماً مختصره: (إلى من رُمي بالتصنيف ظُلْماً! اتل ما أوحي إلى نبيك (ε): ﴿ **مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ** ﴾[فصلت: 43]. والقرآن العظيم قد حوى قصص أنبياء الله ورسله مع أممهم وما ينالهم من الأذايا والبلايا في سبيل الدعوة، وهذه سنة من الله ماضية لكل من سلك سبيلهم، واقتفى أثرهم. ألم تر سير الصحابة والتابعين وأتباعهم في كل عصر ومصر إلى عصرنا الحزين، كيف يقاومهم المبطلون، ويشنع عليهم المبطنون. وفي هذا مواقف لا تحصى، وقصص لا تنسى، وإذا قرأت كتاب"من أخلاق العلماء" رأيت من ذلك عجباً. فكم في سيرهم الشريفة من إمام ضرب بل قتل، وإمام سجن، وإمام عزل وأهين، بل فيهم من جمعت له هذه كلها أو جلها، بما لبس في حقهم الملبسون، وأرجف المرجفون، وهم منها براء، والمرجفون في قرارة أنفسهم عليها شهداء)[1].

(1) باختصار من تصنيف الناس بين الظن واليقين ص 28.

المقوم الخامس: العدل والإنصاف:

لقد أمر الله تعالى بالعدل في عدة مواضع من كتابه، ونهى عن ضده وهو الظلم والبغي، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ [النحل: 90]، وقال سبحانه: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ [المائدة: 8] والآيات في هذا الأمر كثيرة.

(والعدل لفظ عام يعني التوسط الذي هو سمة المسلمين، وسمة أهل السنة والجماعة في الأمور كلها دون استثناء، وهو إعطاء كل ذي حق حقه، ومجالات العدل و صوره كثيرة جداً).[1] والذي يهمنا هنا هو ما يحتاجه المحتسب في تعامله مع المخالفين له؛ فلا بد أن يتصف بالعدل، وذلك في الأمور التالية:

الأمر الأول: العدل في الحكم عليهم؛ فليس المخالفون لأهل الحسبة على درجة واحدة – كما سبق في التعريف بهم-.

الأمر الثاني: العدل والإنصاف في الحكم على ما يصدر منهم من أقوال وأفعال؛ فقد يكون فيما يقولون شيء من الصواب، فالعدل يقتضي قبوله. قال الله تعالى: ﴿**وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ . قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ**﴾ [الأعراف: 28، 29]، فانظر كيف ذكر الله تعالى أن الكافرين برروا فعلهم للفاحشة بأمرين، فرد الباطل منهما، وسكت عن الأمر الذي أصابوا فيه من حيث الواقع، لا من حيث كونه مقبولاً.

الأمر الثالث: العدل في اتخاذ المواقف منهم، وإيقاع العقوبات عليهم عندما يخطئون ويقعون في المنكرات. قال تعالى: ﴿ **فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾. [المائدة: 42].

المقوم السادس: الصبر الجميل:

الصبر زاد عظيم لا يستغني عنه أحد؛ فكيف بالدعاة والمحتسبين.

ولأهمية هذه الصفة أجمعَ كلُ من تكلم عن الدعوة والاحتساب على ذكرها، والتنبيه على ضرورتها، وتوسعوا في بيان الأدلة عليها، ولذلك لن أطيل في

---

(1) من أخلاق الداعية للدكتور سلمان العودة ص 16.

إيضاح هذه الصفة، ولا في بيان أهميتها للمحتسبين، وإنما أقتصر على ذكر بعض الآيات التي أمر الله تعالى فيها بالصبر مع التعليق عليها بما تيسر.

قال الله تعالى: ﴿**فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا**﴾ [المعارج: 5]، وقال جل وعلا: ﴿ **وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا . وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا**﴾ [المزمل:10،11].

وتأمل الأمر بالصبر في قول الله تعالى: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا . فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا**﴾ [الإنسان: 23، 24]، كيف جاء بعد الامتنان على النبي (ε) بإنزال القرآن عليه، وقبل نهيه عن طاعة الآثمين والكافرين؛ تجد فيه من الدلالة على أهمية الصبر في تحمل أعباء التكاليف أولاً، ثم في مواجهة الآثمين والكافرين ثانياً.

كما أن الله تعالى قد أمر بالاستعانة بالصبر في أكثر من موضع، فقال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ [البقرة: 153]؛ (فالعبد محتاج إلى الصبر، بل مضطر إليه في كل حالة من أحواله، ولهذا أمر الله تعالى به، وأخبر أنه "مع الصابرين" أي: مع من كان الصبر لهم خلقاً وصفةً وملكةً بمعونته وتوفيقه وتسديده؛ فهانت عليهم بذلك المشاق والمكاره، وسهل عليهم كل عظيم، وزالت عنهم كل صعوبة، وهذه معية خاصة، تقتضي محبته ومعونته، ونصره وقربه. وهذه منقبة عظيمة للصابرين، فلو لم يكن للصابرين فضيلة إلا أنهم فازوا بهذه المعية من الله، لكفى بها فضلاً وشرفاً.)[1].

وما أحسن اقتران الأمر بالصبر بالنهي عن التأثر باستخفاف الذين لا يوقنون في قول الله تعالى: ﴿**فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ**﴾ [الروم: 60]، وما أجمل قول الإمام ابن القيم تعليقا على هذا الأمر: (فأمره أن يصبر، ولا يتشبه بالذين لا يقين عندهم في عدم الصبر؛ فإنهم لعدم يقينهم عدم صبرهم وخفوا واستخفوا قومهم، ولو حصل لهم اليقين والحق لصبروا وما خفوا ولا استخفوا. فمن قلّ يقينه قلّ صبره، ومن قلّ صبره خف واستخف؛ فالموقن الصابر رزين ملآن، ذو لب وعقل، ومن لا يقين له ولا صبر عنده خفيفٌ طائش، تلعب به الأهواء والشهوات، كما تلعب الريح بالشيء الخفيف. والله المستعان.)[2]

وبعد؛ هذه أهم المقومات التي لا بد من توفرها في أهل الحسبة حتى يقوموا بهذه المهمة الشريفة خير قيام، وحتى يهيئوا أنفسهم لمواجهة المخالفين، وجهاد المبطلين، وتحمل المشاق والتبعات التي تعترضهم في طريق الإصلاح.

---

(1) تفسير السعدي 74.

(2) التبيان في أقسام القرآن (ص: 138) ط: دار عالم الفوائد.

المبحث الثالث
آداب تعامل المحتسبين مع المخالفين في ضوء القرآن الكريم

لا شك أن سنة الله تعالى قد اقتضت وجودَ مخالفين لأهل الحق، ووقوعَ المدافعة بين الفريقين، ﴿**سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا**﴾ [الفتح:23].

ولما كان قيام أهل الحسبة بالاحتساب يؤدي إلى قيامِ المخالفين للحق بمعارضتهم، والوقوفِ في طريقهم، والسعيِ لمحاربتهم وإثارة الشبهات ضدهم؛ كان لزاماً عليهم أن يكونوا على دراية بكيفية التعامل مع أولئك المخالفين، وعلى معرفة بالآداب التي أمرهم الله تعالى بها في كتابه الكريم، وحثهم على الاتصاف بها.

ويمكن القول بأن أهم الصفات الواجبة على المحتسبين، وآكد الآداب اللازمة لهم في التعامل مع المخالفين ومواجهة المبطلين هي ما يلي:

أولاً: التثبت والتبين:

من المعلوم أن المخالفين لأهل الحسبة يعدون في الغالب من أهل الفسق والإثم والعدوان، وقد بيّن الله تعالى المنهج الصحيح الأمثل في التعامل مع الأخبار التي ينشرونها، والأقوال التي يقولونها، والاتهامات التي يصدرونها، وهو ما جاء في قول الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ**﴾ [الحجرات: 6]، وفي قراءة سبعية: ﴿ **فتثبتوا**﴾[1].

(وهذا من الآداب التي على أولي الألباب التأدب بها واستعمالها، وهو أنه إذا أخبرهم فاسق بخبر أن يتثبتوا في خبره، ولا يأخذوه مجردا، فإن في ذلك خطرا كبيرا، ووقوعا في الإثم، فإن خبره إذا جعل بمنزلة خبر الصادق العدل، حكم بموجب ذلك ومقتضاه، فحصل من تلف النفوس والأموال، بغير حق، بسبب ذلك الخبر ما يكون سببا للندامة، بل الواجب عند خبر الفاسق، التثبت والتبين، فإن دلت الدلائل والقرائن على صدقه، عمل به وصدق، وإن دلت على كذبه، كذب، ولم

(1) قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم فتبينوا بالياء والنون، وقرأ حمزة والكسائى فتثبتوا بالثاء والتاء. انظر كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد ص 236.

يعمل به)[1].

ومجالات التثبت التي يحتاج إليها أهل الحسبة متنوعة، والذي يعنينا هنا هو تثبتهم عند التعامل مع المخالفين، فلا ينبغي لهم أن يتعجلوا في اتخاذ أي موقف، أو بناء أي حكم حتى يمتثلوا أمر الله تعالى بالتثبت والتبين حتى يسلموا من الندامة.

ثانياً: الرد على المخالفين بالتي هي أحسن:

إذا صدرت من المخالفين أقوال باطلة فإن الرد عليها لازم، وخاصة إذا انتشرت بين الناس؛ فإن هذا من إنكار المنكر الذي هو جزء من عمل المحتسب.

ولكن ينبغي أن يكون الرد على المخالف بالطريقة المشروعة، وبالتي هي أحسن.

قال تعالى: ﴿**وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا**﴾ [الإسراء: 53]، وقال جل وعلا: ﴿ **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ [النحل: 125]، وقال: ﴿ **وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا**﴾ [البقرة: 83]، وقال جل وعلا: ﴿ **وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ**﴾ [فصلت: 34، 35]

والرد بالتي هي أحسن يقتضي أموراً مهمة، ومنها:

<u>الأمر الأول:</u> الابتعاد عن الألفاظ القبيحة، والعبارات السيئة، كالسب واللمز، والنبز بالألقاب، وغير ذلك مما لا يليق بالدعاة قوله ولا التلفظ به. ولا شك أن المحتسب قد يواجه الأذى الشديد، وقد تفاجئه بعض المواقف، فينبغي له أن يحرص على التأدب بهذا الأدب العظيم. وتأمل قول الله تعالى: ﴿ **وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[الأنعام: 108]، وانظر كيف دلت هذه الآية على أن السب ليس من أدب أهل الحق ولا من طريقتهم في التعامل مع الناس، حتى ولو كانوا من المشركين.[2] وإذا صدرت الألفاظ القبيحة، والألفاظ السيئة من المخالف فإن ذلك لا يبرر لنا الوقوع فيما وقع فيه إلا في حدود ما أذن الشرع به، وهو الرد بالمثل، مع أن الترفع أفضل وأحسن، والباغي للخير يسعى للاتصاف بما هو أحسن. قال تعالى: ﴿ **وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ**

---

(1) تفسير السعدي ص 799.

(2) ينظر التحرير والتنوير 7/431-432.

صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ . وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ . إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: 126 - 128]، وقال جل وعلا: ﴿ **وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ . إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾** [الشورى: 40 - 43].

<u>الأمر الثاني:</u> المراد بـ"التي هي أحسن" الطريقة التي هي أحسن وأنجع وأفضل في تحقيق المقصود، وهذا يقتضي التأني والنظر والبحث عن الطريقة التي تحقق المقصود من الرد عليهم، والمقصود هو تغيير المنكر، وإبطال الباطل، وإظهار الحق. وهذا يختلف باختلاف الأشخاص والأحوال. ولذلك يجد الناظر في القرآن الكريم صوراً متعددة، وطرائق مختلفة للرد على المخالفين، وعلى أقوالهم. ومن صور الرد:

الرد بالإعراض: وهذا نوع من الرد مناسب في أحوال كثيرة، وقد ورد الأمر به في عدة مواضع، قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا . فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا . أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾** [النساء:61-63]، وقال: ﴿ **وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾** [النساء:81]، وقال سبحانه: ﴿ **كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ . الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ . فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ . فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ . إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾** [الحجر:90-95]، وقال: ﴿ **فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾** [النجم:29].

(وما أحوج أهل العلم والدين والصلاح إلى مثل هذا التوجيه الإلهي الكريم، لا سيما مع أهل الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق، المجادلين بالباطل، بعد إقامة الحجّة عليهم. فإنّ في مجادلتهم ومواجهتهم مع ذكرهم بأسمائهم تكريماً لهم، ورفعاً لشأنهم، مع حقارتهم ووضاعتهم وخستهم. فهم لا يقتاتون ولا يصلون إلى الشهرة التي يطمحون إليها إلا عن طريق هذه المجادلات الباطلة مع أهل العلم والصلاح، لذا تراهم يحرصون دائماً على استفزاز المؤمنين من أهل الغيرة بأقوالهم

وكتاباتهم، التي تنال من الدين وأهله، لا سيما في زمن الضعف والهوان، ودعاوى الحرية واحترام حقوق الإنسان!!، فالله المستعان، وما أحسن قول الشاعر:

يخاطبني السـفيه بكلّ قبحٍ * فأكره أن أكون لـه مجيباً
يزيد سـفاهة وأزيد حلماً * كعود زاده الإحـراق طيباً)[1]

وهذا الإعراض لا يعني ترك البيان لباطلهم، وإنما يعني الإعراض عن جهالاتهم وعدم الاشتغال بهم، مع بيان الحق وبذل النصح بالطريقة المناسبة التي يحصل بها المقصود، ولذلك أمر الله بوعظ المخالف مع الإعراض عنه فقال: ﴿ **فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا**﴾[النساء:61-63]. قال ابن عاشور: (فهذا الإعراض إعراض صفح أو إعراض عدم الحزن من صدودهم عنك، أي لا تهتم بصدودهم، فإن الله مجازيهم، بدليل قوله: "وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا"، وذلك إبلاغ لهم في المعذرة، ورجاء لصلاح حالهم. شأن الناصح الساعي بكل وسيلة إلى الإرشاد والهدى)[2].

الرد بالإقناع والتعليم: وهذا يكون في حق الجاهل بالحكم، والباحث عن الحق، وهذا ما فعله المنكرون في قصة أصحاب القرية التي كانت حاضرة البحر، حيث سألت أمة منهم الطائفة التي كانت تنهى عن المنكر قائلة: ﴿ **لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا**﴾ فأجابوهم قائلين: ﴿**مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾ [الأعراف: 164].

الرد بالمجادلة الحسنى: قال تعالى: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ [النحل: 125]، وهذا يكون مع الذي خالف الحق لشبهات عرضت له، فهو يثيرها، ويشوش على الناس بها، فلا بد من جداله بالتي هى أحسن لبيان الحق، ورد الشبهات. قال ابن القيم (~) تعليقاً على هذه الآية الكريمة: (فذكر سبحانه مراتب الدعوة، وجعلها ثلاثة أقسام بحسب حال المدعو فإنه إما أن يكون طالباً للحق راغباً فيه محباً له مؤثراً له على غيره إذا عرفه؛ فهذا يدعى بالحكمة ولا يحتاج إلى موعظة ولا جدال، وإما أن يكون معرضا مشتغلا

---

(1) من مقال للدكتور محمد بن عبدالعزيز المسند بعنوان: أيها الداعي أعرض عن الجاهلين، في موقع شبكة نور الإسلام.

(2) التحرير والتنوير لابن عاشور 108/5.

بضد الحق ولكن لو عرفه آثره واتبعه؛ فهذا يحتاج مع الحكمة إلى الموعظة بالترغيب والترهيب، وإما أن يكون معاندا معارضا؛ فهذا يجادل بالتي هي أحسن، فإن رجع إلى الحق وإلا انتقل معه من الجدال إلى الجلاد إن أمكن.

فلمناظرة المبطل فائدتان:

أحدهما: أن يرد عن باطله ويرجع إلى الحق.

الثانية: أن ينكف شره وعداوته ويتبين للناس أن الذي معه باطل.

وهذه الوجوه كلها لا يمكن أن تنال بأحسن من حجج القرآن ومناظرته للطوائف فإنه كفيل بذلك على أتم الوجوه لمن تأمله وتدبره ورزق فهما فيه وحججه مع أنها في أعلى مراتب الحجج.)[1]

الرد بالموعظة والقول البليغ: الوعظ هو الكلام المؤثر المقرون بترغيب أو ترهيب، والقول البليغ هو القول الذي يبلغ إلى نفوسهم، قال تعالى: ﴿**فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا**﴾[النساء:61-63] (أي: قل لهم قولاً بليغاً في أنفسهم مؤثراً في قلوبهم يغتمّون به اغتماماً، ويستشعرون منه الخوفَ استشعاراً، وهو التوعُّدُ بالقتل والاستئصالِ، والإيذانُ بأن ما في قلوبهم من مكنونات الشرِّ والنفاقِ غيرُ خافٍ على الله تعالى وأن ذلك مستوجِبٌ لأشد العقوباتِ، وإنما هذه المكافأةُ والتأخيرُ لإظهارهم الإيمانَ والطاعةَ وإضمارِهم الكفرَ، ولئن أظهروا الشقاقَ وبرَزوا بأشخاصهم من نفق النفاقِ لَيَمسَّنهم العذابُ إن الله شديدُ العقاب.)[2].

ثالثاً: عدم التنازل والركون إلى الأعداء والمخالفين للحق:

وهذا الأمر مهم جداً لكل محتسب وداعية إلى الحق؛ فإن أهل الباطل يسعون بكل وسيلة إلى استمالة أهل الحق إليهم، كما قال تعالى: ﴿**وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ**﴾ [القلم: 9]، ومن داهنهم، وركن إليهم فرحوا به، واتخذوه خليلاً. قال الله تعالى: ﴿**وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا . وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا . إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا**﴾ [الإسراء: 73- 75] .

فعلى المحتسب الصادق أن يكون على حذر من الاستجابة لأهل الباطل، وأن يعلم أنه مكلف بالقيام بما أمره به ربه على الوجه الذي أُمر به من غير تساهل ولا

---

(1) الصواعق المرسلة لابن القيم (1276/4).

(2) تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (107/2).

مجاوزة للحد، وهذا ما أمر به محمد (ε) وأتباعه في قوله تعالى: ﴿**فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ**﴾ [هود: 112، 113].

ومما يدل على خطورة التنازل عن الحق، وحرمة طاعة المخالفين له ممن كرهوا ما أنزل الله ما ورد في قول الله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ**﴾ [محمد: 25، 26] فليحذر المسلم عموماً، والداعية المحتسب خصوصاً من "سنطيعكم في بعض الأمر".!![1].

ومن الآيات التي تحذر من ترك الحق بسبب أذى المخالفين وتعنتهم، ما ورد في سورة هود من تحذير للنبي (ε) من ترك بعض ما يوحى إليه، حيث قال الله تعالى: ﴿ **فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ**﴾ [هود: 12]، (والمعنى تحذيره من التأثر بعنادهم وتكذيبهم واستهزائهم، ويستتبع ذلك تأييس المشركين من تركه ذكر البعث والإنذار بالعذاب، فالخطاب مستعمل في حقيقته، ومراد منه مع ذلك علم السامعين بمضمونه.)[2].

قال السعدي (~) **في بيانه لمعنى هذه الآية:** (يقول تعالى - مسليا لنبيه محمد (ε)، عن تكذيب المكذبين-: {فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز} أي: لا ينبغي هذا لمثلك، أن قولهم يؤثر فيك، ويصدك عما أنت عليه، فتترك بعض ما يوحى إليك، ويضيق صدرك لتعنتهم بقولهم: {**لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك**} فإن هذا القول ناشئ من تعنت، وظلم، وعناد، وضلال، وجهل بمواقع الحجج والأدلة، فامض على أمرك، ولا تصدك هذه الأقوال الركيكة التي لا تصدر إلا من سفيه ولا يضق لذلك صدرك)[3].

إن قضية الثبات على الحق، والاستقامة على الشرع بدون تفريط ولا طغيان، ومن غير ميل للأعداء والمخالفين وركون إليهم قضية كبرى، وخاصة في هذا

(**1**) ينظر بيان جيد لهذه القضية للشيخ بكر أبو زيد (~) في كتاب الحدود والتعزيرات عند ابن القيم 14/1.

(**2**) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور 16/12.

(**3**) تفسير السعدي ص 378.

الزمان، الذي كثرت فيه الفتن والشبهات، وتمكن الأعداء فيه من كثير من الأمور التي جعلت بعض الضعفاء أو المفتونين يغتر بهم، ويسعى لنيل رضاهم؛ فحصلت الفتنة والفساد الكبير.

وعلى المحتسبين أن يقوموا بمهمتهم الجليلة كما أمروا، وألا يظنوا أنهم بتركهم لشيئ من الواجب، أو بتساهلهم في القيام به سيحققون شيئاً من المكاسب، أو سيصلون إلى شيئ من النتائج التي يسعون إليها؛ بل لن يزيدهم ذلك إلا ضعفاً وهواناً، ولن يزيد أعداءهم والمخالفين لهم إلا رهقاً وطغياناً. فالله الله في الثبات، ﴿ **وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ**﴾ [الحجر: 65]، وقولوا لمخالفيكم الطاغين: ﴿ **اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ . وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ . وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾ [هود: 121 - 123]. (1)

رابعاً: عدم المجادلة والدفاع عن المبطلين:

قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا . وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا . وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا**﴾ [النساء: 105، 107].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (~)**:** (ودل قوله: ﴿ ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ﴾ أنه لا يجوز الجدال عن الخائن ولا يجوز للإنسان أن يجادل عن نفسه إذا كانت خائنة.)(2).

وقال جل وعلا: ﴿ **قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ**﴾ [القصص: 17]، قال ابن القيم (~): (فمن كان ظهيرا للمجرمين من الظلمة على ظلمهم ومن أهل الأهواء والبدع على أهوائهم وبدعهم ومن أهل الفجور والشهوات على فجورهم وشهواتهم ليتخلص بمظاهرتهم من ألم أذاهم أصابه من ألم الموافقة لهم عاجلا وآجلا أضعاف أضعاف ما فر منه)(3).

ورحم الله الشيخ عبدالله بن قعود؛ فقد خاف على العلماء والدعاة من فتنة مجاملة المجرمين، والدفاع عنهم، فقال موجهاً رسالة إليهم: (إلى هؤلاء وأمثالهم

---

(1) ينظر مقال مهم في هذه القضية للأستاذ الدكتور جعفر شيخ إدريس في موقعه على شبكة المعلومات، ومعه تعليق للعلامة عبدالعزيز بن باز : http://www.jaafaridris.com/Arabic/Muhadarat/mohimat.htm

(2) مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية، وينظر بقية كلامه ففيه فوائد وتنبيهات مهمة.

(3) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لابن القيم.

من المتسابقين إلى أعتاب المترفين، والمبادرين بتأول أخطائهم وتبرير وتأييد ما هو محل نظر من أفعالهم، وإلى من يسعون كثيراً مع عالم مصلح ليعدل عن عمل بر بدأه، أو ليسكت عن منكر أنكره، فإني أخاف على نفسي وعليهم في موقف ما من خطورة مخالفة ما استحفظهم الله إياه أمثال: ﴿**ولا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ والْعُدْوَانِ**﴾ **[المائدة 12]**، ﴿**رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ**﴾ [القصص 17]...)[1].

خامساً: الجهاد والغلظة للمخالفين من أهل النفاق:

قال الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾ [التوبة: 73]، [التحريم: 9]. جاء في تفسير الرازي لهذه الآية: (دلت الدلائل المنفصلة على أن المجاهدة مع الكفار يجب أن تكون بالسيف، ومع المنافقين بإظهار الحجة تارة، وبترك الرفق ثانيا، وبالانتهار ثالثا. قال عبد الله في قوله: "جاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنافِقِينَ" قال تارة باليد، وتارة باللسان، فمن لم يستطع فليكشر في وجهه، فمن لم يستطع فبالقلب.)[2]

قال ابن القيم (~)**:** (جهاد المنافقين إنما هو بتبليغ الحجة وإلا فهم تحت قهر أهل الإسلام قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾ [التوبة: 73]، [التحريم: 9]، فجهاد المنافقين أصعب من جهاد الكفار وهو جهاد خواص الأمة وورثة الرسل، والقائمون به أفراد في العالم، والمشاركون فيه والمعاونون عليه وإن كانوا هم الأقلين عدداً فهم الأعظمون عند الله قدراً. ولما كان من أفضل الجهاد قول الحق مع شدة المعارض مثل أن تتكلم به عند من تخاف سطوته وأذاه كان للرسل - صلوات الله عليهم وسلامه - من ذلك الحظ الأوفر وكان لنبينا - صلوات الله وسلامه عليه - من ذلك أكمل الجهاد وأتمه .)[3]

سادساً: فضح المخالفين من المنافقين، وكشف خططهم:

من قرأ القرآن وتأمله ظهر له أن فضح المنافقين مقصد شرعي، وقد سميت سورة التوبة بالفاضحة لأنها كادت أن تكون في المنافقين بكمالها، وأخبر الله أن من مقاصد الشرع أن يعرف المؤمنون الصادقون أهلَ النفاق الكاذبين حتى

(**1**) مجلة البيان عدد رقم 54 ص26 من مقال بعنوان: إلى الموقعين عن رب العالمين للشيخ عبدالله بن قعود.

(**2**) التفسير الكبير للرازي 103/16.

(**3**) زاد المعاد لابن القيم 5/3.

يتعاملوا معهم بما يقتضيه الشرع ولكي يكونوا منهم على حذر، فقال تعالى لنبيه (ε): ﴿ **عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ**﴾ [التوبة: 43]، وهدد الله المنافقين وأصحاب القلوب المريضة بالفضح على رؤوس الأشهاد بصفات لا تخطئهم حتى يعرفهم الناس بصفاتهم وكلامهم، فقال تعالى: ﴿ **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ . وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ**﴾ [محمد: 29-30]، وجعل من مقاصد الابتلاء ظهورَ المنافقين ومعرفتهم وفضح أمرهم، فقال سبحانه: ﴿ **وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ . وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ**﴾ [آل عمران: 166، 167].

ويجدر التنبيه هنا على أن من منهج القرآن الكريم في فضح المنافقين التركيزَ على أوصافهم وأعمالهم، وعدم التعرض لأسمائهم؛ فلا تجد في القرآن اسم منافق واحد، بينما تجد فيه الكثير من صفات المنافقين وأعمالهم.

هذه أهم الصفات التي وردت في القرآن الكريم، وهي تعتبر معالم مهمة في التعامل مع المخالفين للمحتسبين، من المنافقين وغيرهم.

A

وبعد هذه الدراسة المختصرة في بيان المعالم المهمة في التعامل مع المخالفين لأهل الحسبة في ضوء القرآن الكريم أختم بهذه النتائج والتوصيات:

أولاً: تبين لي من خلال هذا البحث أن موضوعه جدير بالبحث الموسع، والدراسة المطولة، وذلك لأهميته، وكثرة الآيات الواردة فيه.

ثانياً: ازددتُ قناعة من خلال هذا البحث بحاجتنا الماسة إلى فهم القرآن الكريم وتدبره، وأن ذلك كفيل - بتوفيق الله – بإيضاح الأمور لنا على حقيقتها، وبهدايتنا للتي هي أقوم في كل مجال من مجالات حياتنا.

ثالثاً: من أهم القضايا التي يحتاج إليها المسلمون جميعاً والدعاة والمحتسبون خصوصاً تعلم البينات القرآنية، وغرس هذه البينات في نفوسهم، حتى يتيقنوا منها، ويصلوا إلى مرتبة من الرسوخ والقناعة واليقين تمكنهم من الثبات على الصراط المستقيم، وتعينهم على تحمل أعباء الطريق.

رابعاً: أوصي بالحرص على إقامة دورات متتابعة لأهل الحسبة، يُعنى فيها بإبراز هدايات القرآن، وتجلية حقائقه، واستخراج كنوزه وعلومه حتى تكون عوناً لهم على القيام بمهمتهم كما أمرهم الله تعالى، ولتكون لهم زاداً يتزودون منه كل حين.

خامساً: أوصي نفسي وإخواني المحتسبين بأن نأخذ وصايا القرآن الكريم وتوجيهاته بقوة وحرص؛ فتلك هي وصية الله تعالى لأوليائه، ولجميع عباده، وفي امتثالها طمأنينة وسعادة، ونجاة من الغبن والخسارة.

سادساً: أقترح على هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمؤسسات المماثلة لها أن تحرص على التأهيل الأمثل لمنسوبيها من المحتسبين ليزدادوا علماً وبصيرة وثباتاً. وذلك يكون بربطهم بكتاب ربهم، وسنة نبيهم، وحثهم على ما يكون عوناً لهم على القيام بواجبهم من قراءة للقرآن بتدبر، ومن تأمل لهدي النبي (ε) وهدي المرسلين قبله في التعامل مع المخالفين لهم من أهل الكفر والضلال.

سابعاً وأخيراً: أرى أن من الأهمية بمكان أن تخصص هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريقاً من المؤهلين للاحتساب على المخالفين لهم من أهل النفاق والضلال والانحراف، وأن يتولى هذا الفريق الدفاع عن المحتسبين ببينة وعدل وإنصاف، ويقوم بمسؤولية إظهار الحقائق، وبيان الموقف الصحيح من القضايا التي يدندن حولها أولئك المضلين.

هذا؛ والله أعلم، والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله وسلم على إمام المتقين، ورضي عن آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين

K وF

1. القرآن الكريم.
2. تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي- طبعة مؤسسة الرسالة – تحقيق: عبدالرحمن اللويحق.
3. الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي – مؤسسة الرسالة – تحقيق: عبدالله التركي.
4. رسالة ابن القيم لأحد إخوانه – طبعة دار عالم الفوائد – تحقيق: عبدالله المديفر.
5. مفتاح دار السعادة لابن القيم – دار عفان – تحقيق: علي بن حسن عبدالحميد.
6. تفسير التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور – الدار التونسية للنشر.
7. السبعة في القراءات لأبي بكر ابن مجاهد – دار المعارف – تحقيق: شوقي ضيف.
8. تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم للإمام أبي السعود.
9. التبيان في أيمان القرآن للإمام ابن قيم الجوزية – طبعة دار عالم الفوائد.
10. الفوائد لابن القيم– طبعة دار ابن خزيمة – تحقيق: عامر بن علي ياسين.
11. تفسير الكشف والبيان عن تفسير القرآن للإمام الثعلبي
12. تفسير زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي – المكتب الإسلامي – تحقيق زهير الشاويش.
13. تفسير معالم التنزيل للبغوي – دار طيبة – تحقيق: محمد بن عبدالله النمر وآخرين.
14. الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للواحدي – دار القلم – تحقيق: صفوان داوودي.
15. معارج القبول بشرح سلم الوصول للشيخ حافظ الحكمي- دار ابن القيم – تحقيق: عمر بن محمود أبوعمر.
16. الحسبة في الماضي والحاضر بين ثبات الأهداف وتطور الأسلوب للدكتور علي بن حسن القرني – مكتبة الرشد.
17. الأحكام السلطانية للماوردي – دار الكتب العلمية.
18. سنة التدافع وحقيقة العلاقة بين الحق والباطل –دراسة قرآنية موضوعية- لخالد بن موسى الزهراني – مكتبة الرشد. مجلة البيان العدد 115، والعدد 54.
19. القول المفيد على كتاب التوحيد لمحمد العثيمين – دار ابن الجوزي.

20. زاد الداعية إلى الله للشيخ محمد بن صالح العثيمين.
21. قواعد مهمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في ضوء الكتاب والسنة للدكتور حمود بن أحمد الرحيلي.
22. نظم الدرر للبقاعي –دار الكتب العلمية - تحقيق: عبدالرزاق غالب.
23. تصنيف الناس بين الظن واليقين للشيخ بكر أبو زيد – دار العاصمة.
24. من أخلاق الداعية للدكتور سلمان العودة.
25. موقع الشيخ جعفر شيخ إدريس
26. موقع شبكة نور الإسلام.
27. الصواعق المرسلة لابن القيم- دار العاصمة – تحقيق: الدكتور دلي بن محمد الدخيل الله.
28. الحدود والتعزيرات عند ابن القيم للشيخ بكر أبو زيد.
29. مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية.
30. شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لابن القيم.
31. التفسير الكبير للرازي- دار الكتب العلمية
32. زاد المعاد لابن القيم- مؤسسة الرسالة – تحقيق: شعيب الأرناؤوط.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
ملخص البحث	**3**
ملخص البحث إنجليزي	**4**
المقدمة	**5**
التمهيد	**8**
المبحث الأول: حاجة المحتسبين لتدبر القرآن المبين	**12**
المبحث الثاني: مقومات المحتسبين في ضوء القرآن الكريم	**16**
المبحث الثالث: آداب تعامل المحتسبين مع المخالفين في ضوء القرآن الكريم	**32**
الخاتمة	**45**
المصادر والمراجع	**47**
فهرس الموضوعات	**50**

k

B